الدرس الرابع : القصص على لسان الحيوان:

تمهيد :

السرد على لسان الحيوان من أعرق الأشكال التعبيرية في الآداب العالمية، فقد توسل به قدماء المصريين وقدماء اليونان والهند وبلاد فارس في القديم من العصور إلى التعبير عن الكثير من القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية، بانتحال صورة الحيوان وصوته، لتجسيد تلك القضايا التي تشغل بال المجتمعات الإنسانية وتؤرقه، ساعين بذلك إلى إقرار حكمة، أوتأكيد رؤية سياسية أو اجتماعية أو النهي عن أخلاق سيئة والدعوة للتمسك بأخلاق الفضيلة والورع في معاملة الناس والتفاعل معهم.

ويدخل هذا الفن في نظر الكثير من النقاد والدارسين ضمن ما يعرف بالخرافة لاستحالة الأمر في واقع الحال،ولما لهذا الفن من ضروب العجيب والغريب ولما فيه من متعة فنية تجعل المتلقي شديد التأثر بما يقرأ، وهو فن قد يلجأ إليه صاحبه في حالات معينة ومختلفة.

لعل من أبرزها:

– حالة الطغيان والاستبداد

– حالة تفشي الأمراض الاجتماعية وتخلي الناس عن القيم الفاضلة وجريهم وراء متع الحياة بكل الطرق المتاحة،ولو كانت غير شريفة ولا إنسانية

– الدعوة إلى فلسفة جديدة في الحياة يخشى صاحبها من ردة فعل سلبيةعلى مايدعو إليه" فالحكي على لسان الحيوان هي وسلة العلماء والفلاسفة والمتصوفة والأدباء والشعراء، لتجنيب المتلقي ومستقبل الخطاب النفور من مما هو مكرر على أسماعه من مواعظ وعبر،فقدت بريق تأثيرها بحكم التعود وحدة الأسلوب المباشر،ولهذا فخرق المألوف في صيغة إرسال الخطاب يجعله يسترجع سلطة التأثير، خاصة إذا كان هذا الوسيط ممن لا يعقل ولا ينطق؛من أنواع حيوانات البر والبحر وأصناف الطيور والزواحف والهوام فإذا بها مصدر للحكمة والمعرفة ولسان الأخلاق و الفضائل وهذا عين العجيب الذي تنشرح له الصدور"[42]

1 –نشأة فن القصص على لسان الحيوان

[42]- أمال فرفار؛ الكتابة المتوسلة بلسان الحيوان في الثقافة العربية.. مجلة العلوم الإنسانية . قسنطينة ع. 42، ديسمبر 2014

وقد اختُلف حول نشأة هذا الفن ومهاده التاريخي، فقيل: إنّ أصوله ترجع إلى الهنود والإغريق والفراعنة ،وربما كانت النشأة عند المصريين القدماء وأخذها عنهم الإغريق عندما دخل الإسكندر الأكبر مصر ومن ثم أخذها الإغريق معهم إلى الهند عندما وصل إليها الإسكندر الأكبر غازيا ولكن لاتوجد أدلة ثابتة على ذلك.

وقيل: بل إنّ الهند أسبق الأمم في حلْبة هذا الفنّ، وثمّة من يرى غير ذلك. وعلى أي الأحوال لايعد مثل هذا اللون من القصص فنا إلا إذا اعتمد على الرمز كوسيلة فنية تعليمية ولعلّ ارتباط هذا الفن بالحكاية أو القصّ الشعبيّ، والنشأة الأسطورية له، يكمنان وراء شيوعه لدى كثير من أمم الأرض.

وقد عرف العرب الحكاية على لسان الحيوان معرفة تامّة منذ العصر الجاهلي ويتجلّى هذا الأمر واضحاً في قصص الأمثال الواردة في كتب الأمثال،(كالأمثال للمفضّل الضّبي ت170هـ)، و(جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ت نحو 395هـ)، و(مجمع الأمثال للميداني ت 518هـ).

وفي الشعر الجاهلي زادٌ وافرٌ من هذه الحكايات، ولاسيما في دواوين أمية بن أبي الصلت، والأعشى الكبير، والنابغة الذبياني. وجاء في القرآن الكريم كثير من الآيات عن الحيوان لغايات عديدة، فدارت حوله كثير من الحكايات في كتب التفاسير، التي فصّلت ما أُجمل فيه .

وفي كثرة وجودها دلالةٌ على اهتمام العرب بهذا الفن، واتّخاذهم له سبيلاً للعبرة والموعظة الأخلاقية، وكان يُروى شفاهاً حتى عصر التدوين، وبفعل الامتزاج

الاجتماعي والثقافي الواسع في العصر العباسي الأول تعرّف العرب إلى حكايات الأمم الأخرى.

فهذا (ابن المقفع ت 142 هـ) يخطو بالحكاية على لسان الحيوان خطوة واسعة، لا عهد للأدب العربي بها، فيكون أوّل من نقل هذا الفنّ القصصي من مرحلة الشفاهية الشعبية عند العرب، إلى الأدب المدوّن الكتابي في أول خطوة من نوعها في تاريخ الأدب العربي القديم عامّة، والإبداع القصصي خاصّة، وتزداد هذه الخطوة أهمية، إذا وضعنا في الاعتبار أنّ هذه هي المرّة الأولى في التراث الأدبي عند العرب، التي يُوضع فيها بعد الشعر أول كتاب قصصي مجموع في صعيد واحد."وتنبَّهَ العرب إلى قيمة هذا الأثر الخالد، الذي تنقل بين الأدبين الهندي والإيراني، قبل أن ينتقل إلى العربية، فأُرسي أساس صرحه إرساءً جديداً، ومنه أُخذت ترجمات كثيرة، تربو على الستين .

ومن صور اهتمام العرب به، وتأثيره في أدبهم، محاكاتهم إياه ونسجهم على مثاله. وممّن حاكاه ونسج على منواله،(سهل بن هارون ت 215 هـ في النمر والثعلب)، و(إخوان الصفا في رسالة تداعي الحيوانات على الإنسان) في القرن الرابع الهجري، و(ابن ظَفَر الصّقلي ت 565هـ في سُلوان المطاع في عدوان الأتباع)، و(أبو العلاء المعري ت 449هـ، في أكثر من كتاب وصل إلينا منها الصاهل والشاحج)، و(ابن الهبارية ت 504هـ، تحت عنوان نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة) وممّن عُرِفَ بنظمه (أبان بن عبد الحميد اللاحقي ت 200 هـ)، و (علي بن داود ت 230هـ)، و(بشر بن المعتمر ت 210هـ)،. وغير هؤلاء كثير. فكان تأثير كليلة ودمنة بالغ الأهمية في الأدب العربي . لأنه يمثل نموذجا من أخصب نماذج حركة الأدب المقارن ولا يزال عطاؤه متجددا منذ أن

ألفه الفيلسوف الهندي (بيدبا) استجابة لمطلب ملك الهند (دبشليم) والكتاب يشهد على أن اللجوء إلى القصص على ألسنة الحيوان كان لونا من ألوان التعبير الرمزي عن قضايا الواقع المعيشي يلجأ إليها الكاتب في محاولة للتخفي وراء الرمز لمواجهة عسف الحاكم وظلمه حيث يشهد على ظلم الملك (دبشليم) وسوء حكمه ومحاولة (بيدبا) نصحه وإرشاده بطريقة مباشرة فسجنه (دبشليم) فاضطر (بيدبا) إلى كتابة (كليلة ودمنة)وجعله لونا من ألوان التوجيه والنصح غير المباشر"[43] .

2- خصائص فن القص على لسان الحيوان

إنّ فن الكتابة على لسان الحيوانات هو من الفنون الأدبية القديمة في التاريخ، ولهذا الفن اسم شائع هو "الخرافة" لأنّ العمل قائم على حديث الحيوانات ونحو ذلك، وهذا من الأمور التي لا تحدث في الواقع إطلاقًا، وقد وضع الباحثون خصائص لتمييز هذا الفن والمحافظة على أصالته، ومن تلك الخصائص ما يأتي:

-قِصَر القصة في أغلب الأحيان نظرًا لما تحمله من عبرة وأخلاق .

- عدم اقتصارها على النثر وإنّما قد تكون في الشعر أيضًا .

- محدوديّة أحداثها واقتصارها في الغالب على حدث واحد غير قابل للتفريع .

- شخصيّاتها هي الحيوانات التي تؤدّي دور البشر وتكون البطولة لها مع الحفاظ على خصائصها الحيوانية .

- ضرورة مشابهة الحيوانات للإنسان في كثير من التصرفات لما في ذلك من إثارة ذهن المتلقي كي يعتقد أنّ الحيوان هو إنسان في الحقيقة .

43- روان محيز. خصائص الحكاية على لسان الحيوان. ٦يوليو ٢٠٢١. https://mawdoo3.com/ .

– نقل الحكاية لرسالة أخلاقية محددة تمثّل المعنى العام للقصة التي تدور حوله، وغالبًا ما يُصرِّح الكتّاب بالموعظة الأخلاقية في نهاية القصة مثل قصص كليلة ودمنة .

– مُعالجة القصة الحيوانية الخرافية لمضامين إنسانية عامة ولكن بطريقة الرمز والتلميح .الحيوية في تأويلها لأنّها قيلت لكي تكون مناسبة لجميع الأعمار

– .السهولة في السرد والحوار ما يجعل القصة سهلة التذكّر كذلك .

– القدرة على كسر الحواجز والسفر إلى مختَلف الآداب العالمية؛ لأنّها قيلت لتكون أدبًا يعرفه الجميع من دون أن يكون حكرًا على أدب بعينه، وهذا ما يفسّر وجود كثير من الخرافات العالمية في الأدب العربي ..

– أشهر كتاب الحكايات على لسان الحيوان

من أشهر الأدباء الذين كتبوا على لسان الحيوانات نثرًا وشِعرًا ما يأتي :

عبد الله بن المقفّع :

هو واحد من الكتّاب البلغاء الأعلام في تاريخ الأدب العربي، كان يُصنَّف في مستوى عبد الحميد الكاتب، أصله من بلاد فارس وكان مجوسيًّا إلى أن أسلَمَ على يد الأمير العباسي عيسى عم الخليفة أبي العباس السفّاح، كان حادّ الذكاء مع طيش فيه، اتُّهم بالزندقة ومات مقتولًا، من أشهر كتبه كليلة ودمنة الذي ترجمه وزاد عليه وهو يدور على لسان الحيوانات.